المحور الحادي عشر: بروكلمان وتاريخ الأدب العربي

مقدمة:

يُعَدّ المستشرق الألماني كارل بروكمان (1868–1956) واحداً من أبرز الأسماء التي طبعت الدراسات الشرقية بطابعها العلمي الدقيق خلال القرن العشرين، وُلد في مدينة روستوك الساحلية شمالي ألمانيا، في بيئة تجارية من جانب الأب، لكنّ والدته—ذات النزعة الأدبية الواضحة—كان لها الأثر الأكبر في توجيه ميوله نحو الثقافة والبحث العلمي منذ مراحل مبكرة من حياته.

✦بروكلمان وتاريخ الأدب العربي:

بدأ بروكمان دراسة اللغة العربية وهو لا يزال تلميذاً في المرحلة الثانوية؛ ثم واصل دراسته الجامعية للغات الشرقية إلى جانب اليونانية واللاتينية، وتتلمذ على يد المستشرق الكبير تيودور نولدكه الذي كان له تأثير بالغ في تشكيل منهجه في البحث والتحقيق.

وإلى جانب اهتمامه بالتاريخ الإسلامي والحضارة الشرقية، برز بروكمان خصوصاً بعمله الضخم "Geschichte der arabischen Litteratur"أو "تاريخ الأدب العربي"، وهو موسوعة أدبية ببيليوغرافية فريدة تناولت مجمل ما أُلِّف بالعربية في شتى العلوم والفنون، وقد استغرق إنجاز هذا العمل ما يقارب نصف قرن، ظهر الجزء الأول منه في أواخر القرن التاسع عشر، ثم تلته الأجزاء الأخرى، قبل أن يقوم بروكمان لاحقاً بتصحيح بعضها وإعادة تحريرها بين 1943 و1949.

تولّى عبد الحليم النجار تعريب هذا المشروع العلمي بطلب من جامعة الدول العربية، ونشرته دار المعارف بمصر، وقد اعتُبر هذا التعريب حدثاً ثقافياً كبيراً، لأنه أتاح للباحث العربي فهماً دقيقاً لجهود بروكمان في رصد التراث العربي المخطوط والمطبوع في مكتبات الشرق والغرب.

يؤكد ناشر الترجمة في مقدمته أنّ هذا العمل لطالما كان أملاً لدى القراء العرب، لكشف ما تفرّق من تراثهم، وإبراز ما للعرب من إسهام في بناء حضارة الإنسانية، وإحياء ما نُقل إلى لغات العالم من نتاجهم العلمي والأدبي.

✦القيمة العلمية لمنهج بروكمان:

ينتمي كتاب بروكمان إلى المدرسة الموسوعية التي تجمع بين فقه التراث وتحقيق النصوص وفهرسة المؤلفات، وهو لا يقدّم تاريخاً تعليمياً للأدب كما فعل المؤرخون العرب، بل يتخذ زاويةً عالمية وإنسانية لإظهار الدور الحضاري للأدب العربي في مسار العلم في الشرق والغرب، يتّسم عمله بـ:

- النزعة البيبليوغرافية الدقيقة في وصف المخطوطات وتحديد أماكنها،
- النظرة المقارنة بين مختلف الثقافات السامية والشرقية،
- جمع أسماء المؤلفين وتراجمهم،
- تحليل حركة العلوم في ارتباطها بالتاريخ الاجتماعي والحضاري،
- اتساع الأفق المعرفي وتعدّد مصادر الاطلاع.

وقد أثّر كتابه تأثيراً بارزاً في المناهج العربية والأوروبية التي ظهرت بعده، إذ صار نموذجاً يُحتذى في البحث الفهرسي والتاريخي.

✦قراءة موسّعة في محتوى الأجزاء الستة:

1. الجزء الأول:

يتناول فيه بروكمان بدايات تاريخ الأدب العربي، ويرصد المحاولات الأولى لكتابة هذا التاريخ، مع إبراز المصادر الأساسية لسِيَر المؤلفين والمصنفات، وهو بهذا يضع الأساس المنهجي لفهم امتداد الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى بدايات الإسلام.

2. الجزء الثاني:

يركّز على العصر العباسي، ويُفرد أبواباً للشعراء في بغداد والجزيرة والشام ومصر، ثم ينتقل إلى النثر الفني، والدراسات اللغوية، ومدارس اللغة العربية في الكوفة والبصرة وبغداد وإيران والمشرق، مبرزاً الحيوية العلمية التي ميزت تلك العصور.

3. الجزء الثالث:

يعالج العلوم الشرعية، مثل علم الحديث وكتب المسانيد، ويتناول نشأة الفقه الإسلامي ومدارسه ومذاهبه، مما يجعل هذا الجزء مرجعاً أساسياً لفهم تطوّر العلوم الإسلامية.

4. الجزء الرابع:

يدرس أثر القرآن الكريم في توجيه الأدب والفكر والعلوم، ويتناول القراءات والتفسير والعقائد والتصوف والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والعلوم الطبيعية، في نظرة شاملة تمزج بين الأدب والعلوم العقلية.

5. الجزء الخامس:

يضبط مراحل الأدب العربي بعد سقوط الدولة العباسية سنة 1258م، ويبحث في تنويعات الشعر والنثر والبلاغة، مسلطاً الضوء على التحولات الكبرى التي طرأت على اللغة والأدب في مرحلة ما بعد الفترة القديمة.

6. الجزء السادس:

يبسط فيه تاريخ الدول والأعلام والأنساب وتواريخ المدن والأنبياء، وينتهي بأدب السّمر؛ وهو بذلك يقدّم صورة بانورامية شاملة للتراث العربي في أبعاده التاريخية والاجتماعية.

✦القيمة النقدية للكتاب:

رغم ما وُجه لعمل بروكمان من ملاحظات تتعلق بأخطاء تاريخية أو سوء تقدير في بعض الأحكام—وهي ملاحظات تنبّه إليها عدد من الدارسين العرب—إلا أن الكتاب يبقى عملاً رائداً لا غنى عنه في الدراسات العربية، بل هو جهد فردي استثنائي لم تستطع المؤسسات العربية في بداية القرن العشرين أن تضاهيه.

✦إسهامات بروكمان الأخرى:

لم يقتصر إنتاج بروكمان على تاريخ الأدب العربي، بل نشر كتباً ودراسات مهمة، منها:

- رسالته للدكتوراه حول العلاقة بين الكامل لابن الأثير وتاريخ الرسل والملوك للطبري(1890) ،
- دراسات حول ابن الجوزي،
- ترجمة ديوان لبيد بن ربيعة إلى الألمانية(1891) ،
- تحقيق الوفا في فضائل المصطفى(1895) ،
- كتاب علم اللغات السامية وملخصه(1907–1913) ،
- نحو السريانية (1899) والمعجم السرياني(1928) ،
- كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية(1939) ،
- دراسات واسعة حول اللغة التركية، من بينها تحقيق مواد ديوان لغات الترك للكشغري (1951) وكتاب نحو التركية الشرقية(1954) .

هذه الأعمال تكشف عن سعة معارفه وإلمامه بالعربية والتركية والسريانية واللغات السامية عامة، وتؤكد مكانته كأحد أعمدة الاستشراق العلمي.

✦الخاتمة:

إن قراءة بروكمان للتراث العربي ليست مجرد رصد لأسماء المؤلفين والكتب، بل هي مشروع معرفي شامل يروم رسم صورة كاملة لحيوية العقل العربي عبر القرون، ورغم اختلاف المنظور بين الباحث العربي والمستشرق، فإنّ المنهج الذي اعتمده بروكمان—بصرامته ودقته واتساع شموله—لا يزال من أهم المراجع الأساسية لكل باحث في الأدب العربي وتاريخه.